الأنثروبولوجيا اللغوية وسؤال المنهج

الدكتور عبد الحميد بوروبة

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

الملخص:

إن علم اللسان أو(linguistics)أصبح من أهم العلوم الإنسانية و أوسعها مجالا و أكثرها نفوذا و نجاعة لا بالنسبة إلى ما كان عليه فيما مضى فقط، بل بالنسبة أيضا إلى ما استفادته العلوم الإنسانية الأخرى من تجديد عميق بتطبيقها لمناهجه الخاصة على مواضيع أبحاثها. فقد لاحظ المختصون في هذه العلوم النجاح الباهر الذي كللت به جهود الباحثين فيlinguistics.إذ صار كل فن من فنون الدراسات الإنسانية يصبو إلى تحصيل نفس النتائج من حيث الكم و الكيف بامتثاله نفس المناهج و النظريات. لقد عرضنا لموضوع علم اللسان في مستهل ورقتنا البحثية باعتباره الحقل المعرفي الذي يتقاطع مع الأنثروبولوجيا اللغوية أو الجغرافية اللسانية، محاولين البحث في مناهج البحث الأنثروبولوجي اللساني، إذ مساءلة المنهج يفرض علينا الولوج لمفاهيم متعلقة بهذا التخصص العلمي الذي ينبثق عن الأنثروبولوجيا.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات–المنهج–الأنثروبولوجيا اللغوية–اللغة–اللهجة–االبحث.

Abstract :

Linguistics is nowadays a very important discipline in human sciences .because of its benefits upon other human sciences in renewing its methods on research subjects.It was remarked by specialists ,the great success of Linguistics interms of quantity and quality using the same methods and theories.Introducing Linguistics in our paper because of interrelationship and convergence with linguistic anthropology or geographic linguistics,trying to shed light upon methods of linguistic anthropology,because questioning method oblige us to deal with notions of this scientific discipline that came from Anthropology.

Key words : Linguistics-method-linguistic anthropology-language-dialect-research.

الأنثروبولوجيا اللغوية وسؤال المنهج

الدكتور عبد الحميد بوروبة

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

تمهيد:

اللغة بمفهومها الواسع منظومة بشرية عظيمة الشأن في حياة البشر على مر العصور، وأهم وظائفها تحقيق الوجود الاجتماعي الأمثل له. إن اللغة نظام عرفي مركب ومعقد في آن واحد، تلحظه ولا تكاد تدرك كنهه إلا بالتحليل إلى نظم مجردة عند المتخصصين، و اللغة على حد تعبير أحد اللغويين المعاصرين "قوام الحياة" و عمادها الأول حيث برزت لهم أهميتها في المجتمع، وكانت محور اهتمام علماء الاجتماع و الأنثروبولوجيا.

وفي بحثنا هذا نحاول التعريف بحقل معرفي متفرع من الأنثروبولوجيا أو ما اصطلح على تسميته بالأنثروبولوجيا اللغوية، هناك دوافع ذاتية جعلتني أبحث في هذا الموضوع باعتباره حقلا معرفيا خصبا، تتلاقى فيه الكثير من التخصصات والمناهج، وهناك أسباب موضوعية متعلقة بهذا التخصص الذي ينبغي أن تولى له أهمية كبيرة في البحوث الأكاديمية ذلك أن هذا الحقل المعرفي كفيل بالإجابة عن كثير من الأسئلة المتعلقة بالتنوع اللغوي و اللهجي.

إشكالية الدراسة هي الأنثروبولوجيا اللغوية وسؤال المنهج؟ ماهو تعريف مصطلح المنهج؟ ماهي خصائص البحث الأنثروبولوجي؟ ماهو منهج البحث اللغوي الأنثروبولوجي؟

تتضمن الدراسة تمهيدا، مصطلح المنهج، خصائص البحث الأنثروبولوجي، منهج البحث اللغوي الأنثروبولوجي، خاتمة.

إن الصعوبات التي اعترضتني في الدراسة هو غياب المراجع باللغة العربية واعتمدت على الترجمة باعتبار أن البحث الأنثروبولوجي اللغوي شهد دراسات جادة من قبل الباحثين الغربيين.

مصطلح المنهج:

إن الحديث عن مناهج البحث عديدة ومتشعبة، أصبحت تشغل بال الباحثين والأكاديميين باختلاف تخصصاتهم. وما يهمنا في بحثنا هذا الموسوم بالأنثروبولوجية اللغوية وسؤال المنهج. و قبل أن نلج في عمق الموضوع بالبحث و الدراسة، حري بنا أن نقدم تعريفا لغويا واصطلاحيا عن تأسيس لفظة المنهج. وردت كلمة منهج أو (المنهج)في القرآن الكريم :"و لا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة و منهاجا" [1].

أما إذا فتشنا عن اللفظة المذكورة (منهج) في التراث اللغوي العربي و في المعاجم اللغوية بالتحديد، فإننا نجد جل المعاجم تتفق في تحديد لفظة (منهج) من حيث الجانب اللغوي و الدلالي، و نبدأ بأقدم مصدر وقفنا عليه وثق كلمة المنهج هو: أساس البلاغة للزمخشري (ت 539هـ) جاء عنه :(ن ه ج) أخذ المنهج. و النهج و المنهج و المنهاج و طريق نهج، و طرق نهجة و نهجت

الطريق، بينته، و انتهجته، واستبنته، و نهج الطريق و أنهج: وضح، قال يزيد بن حذاق الشني: و لقد اضاء لك الطريق و أنهجت منه المسالك و الهدى يعتدي [2]

و أنهج الطريق :وضح و استبان ،و صار نهجا واضحا بينا ،و النهج بتسكين الهاء هو الطريق المستقيم [3].و قد عرف المعجم الوسيط المنهج بأنه الخطة المرسومة ،و اللفظة دلالتها محدثة، ومنه مناهج الدراسة و مناهج التعليم و نحوهما [4]

المنهج اصطلاحا: ويعني الطريقة أو الأسلوب و في اللغة الفرنسية هو(méthode).فالقصد من هذا المصطلح الطريق أو السبيل أو التقنية المستخدمة لعمل شيء محدد ،أو هو العملية الإجرائية المتبعة للحصول على شيء "ما" أو موضوع "ما".

و قد وضف المنهج على أنه التيار أو المذهب أو المدرسة، و على الرغم من تعدد هذه المصطلحات فهدف المنهج و غايته واحدة، هو الكشف عن الطريقة أو الأسلوب لتيار معين أو مذهب معين أو مدرسة معينة (5).

كما أن المنهج هو الطريقة الخاصة التي تصلح لكل علم على حدة بل لكل موضوع من موضوعات هذا العلم، و يعني مجموعة القواعد العامة التي يتم وضعها بقصد الوصول إلى الحقيقة في العلم ، إنه الطريقة التي يتبعها الباحث في دراسة المشكلة لاكتشاف الحقيقة، أو الوصول لتحقيق الغاية المراد الوصول إليها (6).

خصائص البحث الأنثروبولوجي:

إن أهم خاصية من خصائص البحث الأنثروبولوجي هي دراسة الثقافة في الميدان .فالدراسة الميدانية هي عماد الدراسات الأنثروبولوجية. و الباحث الأنثروبولوجي حينما يبدأ في دراسة لغة ما فإنه يبدأ في اتباع الأسلوب الميداني في دراسة تلك اللغة ،حيث أن اللغة ماهي إلا جزء من ثقافة أي مجتمع إنساني.

والباحث اللغوي الأنثروبولوجي ينبغي في دراسته أن يبتعد عن البحث في البناء الشكلي للغة في المستويات الصوتية و النحوية من غير أن ينظر إلى ثقافة الناطقين بها، فإذا كان وصفه متضمنا المستوى الدلالي فعليه ان يستعين ببعض المعلومات الثقافية عن الجماعة التي يدرس لغتها،وعلى الأخص إذا أراد أن تكون تفسيراته لمعنى الكلمات أكثر وضوحا، ولا يحصر نفسه في وضع قائمة للألفاظ التي تنقل ترجمة قريبة لمعني الكلمة (7) .

إن ضرورة نزول الباحث إلى الميدان قد تأتي أيضا بسبب فقدان المواد المكتوبة عن بعض اللغات المختلفة، وخاصة اللغات البدائية، لذلك يجب أن يحصل على مادته من الرواة اللغويين مباشرة، ويتم ذلك من خلال زيارتهم في مواطنهم الخاصة، حيث أن المادة الأولية للغة هي التعابير المنطوقة.

الراوي أو الراوية (informant) شخص مألوف و ضروري لدراسة أي لغة حية، والراوي اللغوي لا يعتبر مدرسا ولا لغويا، وإنما هو ببساطة متكلم وطني للغة يمكنه مساعدة المسجل اللغوي في عمله،

والباحث اللغوي تظهر براعته في مدى نجاحه في مباشرة الرواة وكسب ثقتهم حتى يستطيع أن يتكلم الراوي بصورة طبيعية حسب قدرته واقتناعه و ثقته في الباحث الذي أمامه، و يبدأ اللغوي في أخذ صيغ كلمات مفردة على أنها مواد معجمية، وكلمات أخرى بغرض وصفها الصوتي و عمل قوائم و تصريفات لأشكالها اللغوية.

و نجد الراوي في هذه الحالة أيضا يسرد الأقاصيص، الحكايات الشخصية، ونشاطاته الخاصة.. إلخ و يكون الراوي عند سرده لكل هذا واقعا في مجال خلفيته عن لغته الخاصة و على سجيته، فيستطيع الباحث جمع مادته دون أن يكون هناك أي تأثير خارجي يؤثر على دقة المادة و صحتها ، و بعد ذلك يتجه إلى مخبره ليحلل مادته تحليلا علميا من الناحية الصوتية و النحوية.

لاشك أن نجاح الباحث في جمع مادته من الراوي ومن داخل البيئة يعتبر جزءا هاما لكل فحص خاص باللغات الحية، وبالنسبة للعمل في لغات لها نظام كتابة و أدب مسجل و عراقة دراسية ينبغي أن يلحق بعمله في كل مجال مادة محققة من هذه المنابع ومن عمل الدارسين السابقين [8] .كما وجب التذكير أن التعامل مع راو يؤدي عمله وسط جماعته و قومه أفضل بكثير من العمل مع راو منعزل في بيته، حيث يوجد اختلافات شخصية كثيرة في اللغة و في أي لهجة من لهجاتها، ومن الممكن أن يسير وصف لغوي بعد التفكير أو بالضرورة على متكلم يقوم مقام راو، لكن إذا كان هناك فرصة لوجود أكثر من راو واحد، فإننا نستطيع أن نوازن بين خصائص أحد المتكلمين و بين غيره من المستويات اللغوية المختلفة، و يمكن أيضا أن تبرز ظواهر معينة كأبنية و أنماط تنغيمية واختلافات أسلوبية عند المحادثة وفي استعمال اللغة في أوضاعها العادية، ومن الممكن أن تخفى هذه الظواهر على الجماعة التي ينتمي إليها الراوي. فتحليل وظائف دلالية أو معاني كلمات مما يدخل في ثقافة المتكلمين يجب تيسيرها بمساعدة شخص من البيئة الفعلية حتى يمكن استخلاص قرينة السياق منها [9] .ومن هنا جاءت نظرية سياق الحالcontext of situation وهي من أهم النظريات في البحث اللغوي. فهي تنسب إلى العالم فيرثFirth وهي تمثل أساس نظريته في المعنى، ولكنها فقدت أهميتها بعد وفاته سنة 1960، وما لبث أن عادت دراسته "المعنى" إلى صلب البحث اللغوي عند العالم تشومسكي و أصحابه [10].

ثم جاء بعد ذلك العالم الأنثروبولوجي "برونسلاف مالينوفسكي"Malinowski وقام بإرساء قواعد هذه النظرية، فقد توصل إلى فكرة "سياق الحال" من خلال أبحاثه الحقلية التي قام بها في جزر التروبرياند عام 1914،قدم من خلال دراسته هذه شرحا وافيا لمشكلة المعنى في اللغات البدائية [11].

ومن هنا ظهرت أهمية فهم الدارس اللغوي لثقافة المجتمع الذي يدرس لغته، حتى تكون لديه خلفية واسعة لما يجمعه من كلمات ومصطلحات تحمل معاني ضمنية كثيرة، و تعبر عن فكرة و تلعب دورا أساسيا في حياة من يتكلم بها.

منهج البحث اللغوي الأنثروبولوجي:

إن الباحث اللغوي الأنثروبولوجي يتبع في دراسته لأي لغة أو لهجة معينة الطريقة الأنثروبولوجية المتبعة في دراسة المجتمعات إلى جانب بعض الأساليب الأخرى التي تفرضها عليه الدراسات اللغوية و مناهج دراسة اللهجات .و الخاصية الأساسية المشتركة بين كل الدراسات الأنثروبولوجية الآن هي أن تكون دراسة تكاملية: و تتطلب هذه الدراسة ان يقتصر الباحث اهتمامه على مجتمع معين و ثقافة واحدة بالذات، بغية دراستها دراسة مركزة حتى يمكنه الوقوف على مكونات الثقافة و أثرها على بقية نواحي النظم وأوجه الحياة الأخرى، وبعد الكشف عن تلك المكونات يبدأ في تحليلها و معرفة العلاقات التي تربط بينها و بين بقية النظم الأخرى في المجتمع.

لذلك على الباحث أن يتصل اتصالا مباشرا بالمجتمع الذي يدرسه، وهذا معناه الدراسة الحقليةfield work التي تعتبر شرطا جوهريا في الأبحاث الأنثروبولوجية، وتتوقف الدراسة الحقلية الناجحة على أمرين، الأول يتعلق بحجم المجتمع المدروس فكلما صغر حجم المجتمع وتحددت رقعته وتميزت معالمه سهل على الباحث اللغوي الأنثروبولوجي تتبع نظمه ودراسة ثقافته وتغطية معجم اللهجات المستخدمة فيه، والأمر الثاني يتعلق بالمدة التي يمضيها الباحث اللغوي الأنثروبولوجي في المجتمع الذي يدرسه، فكلما كانت المدة طويلة كلما سهل على الباحث فهم اللهجات و اللغات المستخدمة، كما يمكنه وضعها دائما في سياقها الثقافي للوقوف على معناها الكامن و دورها الأساسي في حياة أفرادها.

وقبل بداية نزول الباحث اللغوي الأنثروبولوجي إلى الميدان لدراسة لهجة معينة، ينبغي أن يكون موقفه من عمله موقف المتجرد الموضوعي، فالدراسة التحليلية الوضعية لن تتيسر إلا حين يرتفع الباحث في تفكيره عن مستوى الحقائق و المشاهدات العينيةالجزئية، وتتفاوت درجة التجريد من بحث لآخر تفاوتا شديدا، و يرجع هذا التفاوت إلى مدى قدرة الباحث على التحرر من مشاعره الخاصة، و يجب أن يتبع في دراسته منهج علمي دقيق وذلك لأن نتائج كل نشاط عقلي رهن بمبلغ تملك الموضوع مشاعر الباحث و عقله، وبمبلغ الأمانة و الدقة في المنهج المتبع.

هناك خطوات معينة على الباحث الاسترشاد بها في دراسة لهجة معينة و هي كالآتي:

الخطوة الأولى: هي اعتراف الباحث و ثقته و ادراكه أن اللهجة هي لغة قائمة بذاتها، لها نظامها الصوتي و المعرفي و لها معجمها و بنيانها و أدبها، لذلك يجب أن يدرسها درسا وصفيا تقريريا، وليس درسا فلسفيا، أي ذلك الدرس الذي من شأنه البحث عن العلة و السبب و النتائج وذلك لأننا في حقل اللغة لا نعرف العلة، و إذا أصرينا على معرفة العلة و النتائج نكون قد خرجنا من نطاق البحث العلمي إلى دائرة الحدس و التخمين (12).

الخطوة الثانية: هي أن يدرك الباحث اللغوي الأنثروبولوجي جيدا أن اللغة هي مجموعة من الأفعال و الأنشطة التي تتمثل في التصرف و القواعد المتبعة في تلك التصرفات، كما ينبغي له أن ينظر إلى اللهجة على أنها جزء هام من سلوك الإنسان داخل المجتمع و يحكمها ثقافة وعرف، و أن المجتمع الذي يدرس لهجته عبارة عن شبكة من العلاقات و النظم و التفاهم بين أعضاءه، وأن الكشف عن أي جانب من تلك الشبكة يستتبعه على الفور معرفة بقية مكوناتها (13).

فالدراسات الأنثروبولوجية تؤكد على وجود علاقة قوية بين كل نظم المجتمع، وهذه النظم و الظواهر تتشابك و تتفاعل مع بعضها البعض، و يؤكد ريفرزRiversعلى ذلك في دراساته لمجتمع التودا the todas* بقوله "أن نظم و ظواهر الحياة المختلفة في أي مجتمع من المجتمعات تؤلف نسيجا معقدا من الأفعال و الممارسات و العلاقات المتداخلة بعضها في بعض بشكل وثيق محكم، إلى حد أنني بمجرد أن أبدأ في فحص أي مظهر واحد من مظاهر الحياة كنت أحصل على معلومات وافية تتصل بنواحي أخرى مختلفة كل الاختلاف (14).

لجمع المادة اللغوية يتطلب توفر ثلاثة عناصر:

مخبرInformer،مادةData،منهج Method.

بالنسبة للمخبر أو ما يعرف بالمصدر البشري، فهو أهم ما يعتمد عليه الباحث الأنثروبولوجي اللغوي في دراسة اللهجات، فهو خير مثال على صفاء اللهجة، ومهمته في البحث أن يقدم أمثلة من اللغة، وأن ينشئ كلاما يطلبه الباحث ،و يفسر استعماله باللغة نفسها أو بلغة أخرى...واختيار المصدر البشري ليست عملية سهلة، إذ لا يصلح كل متكلم لهذه المهمة، و ليس هناك مقياس قاطع في اختياره، فقد يكون شخص مصدرا صالحا عند باحث، و غير صالح عند باحث آخر، و المسألة هنا ترجع إلى ظروف البحث و إلى الباحث نفسه [15] .

كما أن الباحثين عن اللهجات لا يكتفون بشخص واحد، فدراسة اللهجات الاجتماعية في تنوعها تقتضي تعدد المصادر البشرية لأسباب كثيرة وهي أن على الباحث أن يحاول الكشف عن الاختلاف في سلوك الحديث من متحدث إلى آخر ومن وقت إلى آخر، لأننا دائما لا نعبر عن الأشياء بنفس الطريقة، كما أن اختلاف العادات اللغوية الخاصة بالعمر و الجنس و العوامل الاجتماعية الأخرى يؤثر في طريقة استخدام اللغة [16].

كما يعتمد الباحث على التسجيل الآلي، واستعمال الاستبيانات المكتوبة و القراءات الخاصة بثقافة المجتمع الذي يدرسه، حتى يمكنه الوقوف على مكونات تلك الثقافة، و التغيرات التي تحدث فيه وأثر كل ذلك على اللغة السائدة، كما أن منهج الدرس اللهجي كما يطبق الآن في علم اللغة الاجتماعي هو منهج ضروري وهام لأهميته و صلته بالواقع الحي لفهم خصائص اللهجات المختلفة المتباينة في المجتمع، وأيضا لإمكانية الوقوف على مميزات و خصائص اللغة الإنسانية على العموم، و يمكن الباحث اللغوي الأنثروبولوجي من التعرف على لهجات المجتمع و ربطها بالعوامل الثقافية المرتبطة بها، و معرفة التغيرات التي تطرأ على كل من الثقافة و اللهجة التابعة لها في أي مجتمع إنساني.

الخاتمة:

ما يمكن استخلاصه من هاته الدراسة هو أن المنهج اللغوي أداة هامة في البحث الأنثروبولوجي اللغوي ،و الدراسة الحقلية هي أفضل الأساليب لوصف و تحليل اللهجات و اللغات في أي مجتمع ، محاولا الكشف عن العوامل و الأنماط الثقافية التي تتحرك من خلالها تلك اللهجات ،حتى يتأتى له فهم ما تحويه من دلالات و معاني كامنة وراء الفاظها و مصطلحاتها.

التهميش:

1-سورة المائدة، الآية48.

2-الزمخشري ،أساس البلاغة، تحقيق أحمد عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت.ص474.

3-ابن منظور: لسان العرب ،دار إحياء التراث العربي،ط14،1988،300/1.

4-المعجم الوسيط ،ط2،مجمع اللغة العربية، دار المعارف بمصر ،2،957/1973.

5-نور الهدى لوشن. مباحث في علم اللغة و مناهج البحث اللغوي، المكتبة الجامعية،الاسكندرية2000،ص284-285.

6-عبد المجيد علي عابدين: مزالق في طريق البحث اللغوي و الأدبي و توثيق النصوص، دار النهضة العربية،بيروت،ص44.

7-علي محمود مزيد، علم اللغة العام في الفكر العربي، المطبعة العالمية،1978،ص124.

8-المرجع السابق،ص124-125

9-المرجع السابق،ص125

10-Firth.J.R.Selected Papers.Edited by Palmer Longmans.1968.p139

11-Malinowski.The problem of Meaning in primitive language supplement1in Ogden and Richards. the meaning of meaning.London10th Edution.1946 pp296-336.

12-أنيس فريحة، محاضرات في اللهجات و أسلوب دراستها،ص63.

Language in the Modern World, penguin "13-Potter.Simon.
books,Inc.U.S.A.1960 p175.
14-Rivers(W.H.R) The Todas.p10.
15عبده الراجحي، اللغة و علوم المجتمع،ص79.

*التودا: هي قبيلة صغيرة رعوية يعيشون في الأماكن المعزولة على هضبة نيلجري في جنوب الهند، كانت موضوع اهتمام الأنثوبولوجيين لعاداتها المغايرة للمجتمعات المجاورة لها في العادات و اللباس و اللغة..

U. of Termont. ."Cultural Anthroplogy"16-William A. Haviland ,
Inc. New york.Chicago.1976.

المصادر و المراجع باللغة العربية:

1- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، 1988،ط14

2- المعجم الوسيط، ط2، مجمع اللغة العربية، دار المعارف بمصر،1973

3- نور الهدى(لوشن)، مباحث في علم اللغة و مناهج البحث اللغوي، المكتبة الجامعية،الإسكندرية2000

4- عبد المجيد (على عابدين)، مزالق في طريق البحث اللغوي والأدبي و توثيق النصوص، دار النهضة العربية، بيروت

5- علي محمود(مزيد)،علم اللغة العام في الفكر العربي، المطبعة العالمية،1978

6- أنيس(فريحة)،محاضرات في اللهجات و أسلوب دراستها، معهد الدراسات العربية العالمية،1955

7- عبده(الراجحي)، اللغة و علوم المجتمع، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية،1977

8- الزمخشري،أساس البلاغة، تحقيق أحمد عبد الرحيم، دار المعارف، بيروت.

المراجع باللغة الأجنبية:

1-Firth, J.R. Selected papers edited by palmer longman,1962.p139.

2-Malinowski :the problem of meaning in primitive language supplement1 in Ogden and Richards. The meaning of meaning.london 10th edition,1946 .

3-Potter Simon :language in the modern world.penguin books.inc.U.S.A.1960.

4- Rivers(W.H.R)

5-William, A Haviland ,Cultural Anthropology,Univ. of Termont,Inc.,New york,1970.